الدعاء

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة سعيد علي

دار الامير

فلسفة الدعاء

في مجتمعاتنا الإسلامية فئتان من الناس:
الفئة الاولى هم المتدينون الذين يؤمنون بالدعاء إلا ماندَرَ منهم، والفئة الثانية هم من بعض الشباب المثقفون الذين يرون ان الدعاء هو عقار مخدّر، يمنع الشخص من العمل والكفاح والسعي لحل المشاكل.
ولكن الدعاء هو عكس ذلك، فهو يحوّل الضعف الى قوّة ويزيد القوّة قوّة.
الدعاء يأتي بعد تأدية الواجب وبعد العمل والعناء والكفاح والصبر، والذين تركوا لنا نماذج من الدعاء هم خير مثال على ذلك.

ومن هذه النماذج، الذين كانوا يمارسو الدعاء، ولم يكونو مترهبين في صومعة، هم النبيّ كان يدعو، وعليّ كان يدعو.
كان عليّ ينازل العدوّ، ولا يفوته شيئ من الاستعداد للحرب، ومن تهيأة المناهج العسكرية والروحية. فيقول لأبنه:
"تزول الجبال ولاتزُل، عضّ على ناجذك، أعر جمجمتك لله، تِد في الارض قدمك، إرمِ ببصرك أقصى القوم وغض بصرك واعلم ان النصر من عند الله سبحانه".
وإذا فرغ من هذا كلّه، دعا ودعاؤه كان مختصراً بكلمات: "اللهم نجِّنا إن انتصرنا من الغرور والإثره والظلم والاستبداد، وإن نحن انكسرنا فقِنا من الذلَّ والعبودية".
وهكذا كان المؤمنون الصادقون، لم يكن دعاؤهم مخدِّراً يقتل الشهامة والرجولة. والذي رغَّبني في الكلام عن الدعاء، هو الفيلسوف الفرنسي الكبير "اليكس كارل" الذي نال جائزتي نوبل، ولم يكن اختصاصه الأدب والفلسفة، أو التاريخ، ولكن كان اختصاصه العلوم الانسانية والطب، فقد أبدع في ربط العروق والشرايين بعضها ببعض، ورتق ما يحتاج منها الربط، وقد احتفظ بقلب دجاجة منزوع من جسمها مدة 35 سنة، فاستحق جائزة نوبل.
"الكسيس" هو فيزيائي وهو جراح وليس كاهناً ولا فيلسوفاً.
وهو طبيب عرف أنماط كثيرة من الناس، كان منهم الكاهن والسياسي والمحامي والعامل والفلّاح، وعرف تأثير الدعاء في هذه الأنماط المتباينة، في أبدانهم أولاً ثم في أرواحهم، بعد سنين من الدرس والبحث.
وهو رئيس لمؤسسة "روكفلر" وكان عالماً بالأحياء والفيزياء، وقد وضع صفوة بحثه في كتيب سماه "الدعاء" ثم كتيب آخر سماه: "تأملاتي في سبيل زيارة لورد".
إن رأي الفلاسفة والكتّاب المتديِّنون في الدعاء معروف وهم كثيرون، إلا ان عالماً بالأحياء والانسجة والخلايا يدرس تاثير الدعاء على المرض، هو الغريب، وأنا أحترم الذين قيَّموا هذا العالم على ما

يستحقه من تكريم وتقدير. لقد وجدت في كتابه الذي تُرجم الى الفارسية، حقائق وصل إليها وآمن بها، كما نؤمن بالدعاء إيمان دين.
فهو يقول مثلاً: متى ضعُف الدعاء في قوم وأهملت سُنَنه، هي علامة على انحطاط القوم وعجزهم.
والمجتمع الذي ينصرف عن الدعاء، تبدأ تفتك فيه جراثيم الإنحطاط والإضمحلال والضعف والعجز.
لقد كانت روما عظيمة، ولكن بعد أن عزَفَ أهلها عن العبادة زلَّت وضعفت.
وتجد له مقولات جميلة وعميقة جداً، فكأنها شعر أو فلسفة فيقول:
الدعاء أمان يصحب من يدعو الله فترى في نظراته وسكناته بريقاً من نور.
وتقوم مؤسسة "لورد" كما يقول الكسيس كارل بإحصاء في كل عام، ممن يحصل لهم الشفاء بالدعاء، باعتراف الأطباء أنفسهم، فهم كثر، وقد كانت نتيجة إيمانهم بالدعاء عجيبة فقد حوَّلت سقمه الى صحَّة.
ولكن كارل يُقر بأن أعدادهم قد تضاءل في السنوات الأخيرة. ثم يذكر السبب فيقول انه خفقان العشق والصدق في الدعاء فلا بد في الدعاء من القوة والاستمرار والاخلاص. والتدفق المستمر وهذا التدفق نجده في أدعيتنا الإسلامية ونصوصها، فنجد في النصوص مثل هذه العبارة: " ليكن دعاؤك كطفل يرجو أمه ملحاً ملحفاً لا ينثني" فليس الدعاء هو مجرد كلمات يلوكها اللسان والقلب مشغول فلعمري فإن هذا احتيال على الله.
كان عيسى بن مريم بالطريق حتى إذا أحس الاعمى بأن عيسى يمرُّ به أمسك بأذياله طالباً منه بغضب وعنف أن يُرجع النور لعينيه، وقبل أن تترك يده الثوب يقول له عيسى: شفاك إيمانك.

<u>المحبة:</u>

الدعاء ليس وسيلة لتلبية حاجة فقط، بل هو المحبة تتجلى، فما لا يدرك بالمنطق والعلم يُدرك بالمحبة.

وعندما لايبقى في القلب إلا المحبة صافية خالصة صادقة، فالله يغضي عمن لا يعلم، ولكنه يتجلىَّ لمن ليس في قلبه إلا المحبة. هكذا يقول رجل المختبر والفيزياء، كم هو رائع أن يتمخض المختبر عن هذا التعبير العميق.

أما الذين يرون ان المعرفة تنحصر في الفكر والعقل، والذين يفسرون الحياة والوجود والروح بقوانين الفيزياء والكيمياء هم قوم يشقُّ عليهم أن يُدركوا وجود الله، ولكن الذين فاضت قلوبهم بالمحبة والإيثار والتضحية يعرفون الله بسهولة ويُسر.

فالانسان، إنسان على قدر ما تكون حاجاته كاملة ورفيعة ومنزَّهة، الانسان الصغير حاجاته صغيرة، والإنسان الكبير حاجاته كبيرة، فالغني هو الاحوج الى الحاجات من الفقير.

لم يكن فضل عليّ إلا في حاجاته الأرفع والاعظم والتي تخص الغير من الناس.

فأنت لست عالماً بمقدار ما فيك من علم، بل بمقدار ما ترى فيك من الجهل، لأن الروح الكبيرة التي تبصر قمم جبال الوجود، فهي تشعر بالتقصير دائماً، أما الأرواح الصغيرة لا تبصر اكثر من طرف أنفها، وهي سعيدة بلحية مرخاة وبقراءة صفحة من مفاتيح الجنان، فتصبح مفاتيح الجنة في أيديهم.

ليس عند هؤلاء قليل من العطش والشوق ولا قليل من الشك كان الرسول يقول: "اللهم زدني حيرة"

إن ذلك الإنسان العجيب الذي امتلأ صدره بنور البصيرة والذكاء، كان أعرف بطرق السماء منه بطرق الارض، فهو يشعر بتخلفه، لأن رؤيته بعيدة وعالية، فإذا اطمأن إلى مرحلة من الكمال أحسن بأنه متخلف جداً ومحتاج جداً، وهو في شوق دائم الى القمم الشامخة البعيدة والمطلقة، ولكن لا يشعر بالشوق من لم يتجاوز تفكيره بيته ومحلته فلا عطش في روحه وقلبه.

إن روح عليّ الكبيرة والمعذَّبة جاوزت حدود العقل والعلم والفلسفة، فقد احتوت روحه العاشقة، البشريَّة كلها بل الوجود كلّه.

الميل الى الواقعية:

وهي تعني ان كل ما هو محسوس هو موجود، وهذا المذهب متحكم في الشرق والغرب، والفرق بين الشيوعية والرأسمالية هو الأسلوب في إدارة هذه الحياة المادية وفي نهج التوزيع والاستهلاك.

إن الفلسفة الماديّة الاقتصادية، والحريَّة الفردية والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وحتى المسيحية خضعت كلها لما هو واقع في المجتمع وموجود وتفسير الأخلاق والغرائز كانت خيِّرة ام شريرة خضعت جميعها لتفسير (فرويد).

هذه الثقافة الواقعية، ليست مدرسة فحسب، بل هي رؤية وسلوك وحضارة، منذ التحول من القرون الوسطى التي كان الدين هو المسيطر، فاليوم التفكير هو مناقض تماماً لتلك الفترة.

وإذا نظرنا الى الإنسان، نجد أننا وضعناه دون منزلته التي يستحقها وجعلناه حيواناً مادياً.

الفلسفة والفن والإبداع والذكاء عندما تترصده المادة يجمد ويضيق الإنسان اليوم هو قدير، ولكنه غير جدير أن يحلّق ويتجاوز حدود الأرض والجذب، لا يعرف غير المنفعة واللذة والقدرة، إن هذه الواقعية هي اكذوبة ومرض.

منشأ العبث الفكري الغربي:

من هم المترفون، هم الذين يأكلون ولا يعملون ولا يعرفون ما يعانية العاملون المنتجون.

والنظام القائم على التفاوت الطبقي، يتيح للأغنياء حق الرفاهية، وأن تكون الأشياء كلها بمتناوله، فلا نقص ولا بحث ولا خوف ولا حاجة ولا قلق، إن لديه كل ما يريد، ولكن مع كل ذلك فهو معذَّب لأنه لا يعرف ما يريد.

هو إنسان خلت حياته من المشكلات ومن المحاولات ومن النضال، فلا معنى لحياته ولا لوجوده، ولا هدف له يسعى إليه، فما أسرعه الى العبث والفراغ.
حياة البرجوازي هي العبث، وهذه هي روح الغرب وفلسفته، إنها صنع العقل الغربي الذي يأكل جهد الآسيويين والافارقة، ليعبث ويسكر ويمجن ويتلهى ذلك هو الهدف.
الحياة عند المرفّه البرجوازي ليس لها معنى، وهي فراغ العالم وعبث الوجود.
هذا الانسان الفارغ، تبدو حياته خالية تافهة، لا واجب عليه ولا عذاب يعاني منه.
وهذه الفلسفة تقول أن السماء خالية، وان العالم بلا عقل مدبِّر، وان الكون هم جماعة حماقة وجنون، ولذلك ترى أفلامهم تعرض لهم ما لم يخطر بالبال من الألعاب الهائجة والمضطربة.
إن من يعيش عيشةً رتيبة على وتيرة واحدة، لا تتغيَّر يضيق صدره، ويسعى الى الصخب والهياج، فأرواحهم خالية من حقائق العيش والحياة.
يقول احد علمائهم (البير كامو) إني أتمرد لأن العالم قائم على ظلم الإنسان والإعتداء عليه، وانا مضطر أن أحتج على الله، ولكن لا وجود لله!
إنه يحتج على من ليس له وجود! فأي تمرد هذا واي احتجاج؟!..
لقد فشل فلاسفتهم الماديون: (سارتر والبير كامو، وهايدجر واندريه جيد) عن الجواب على ما تعانية روح الإنسان من أزمة في هذه الحياة وفي هذه الحضارة.
واحد فلاسفتهم يقول: إن كل ما يقوم به الانسان هو عبث.
لقد توصل المفكرون البرجوازيون الى أن العالم تافه وسخيف. والعلَّة ليست بهؤلاء المفكرين، ولكن في الفكر المادي الرأسمالي المسيطر، ولأن هناك حاجات تتجاوز حدود المادة، ولأن هذا العالم بحاجة الى تفسير روحي، ليكون عندة الأمل والهدف، لقد نفروا من الارض ومن

الانتاج والاستهلاك والحياة الرغيدة، إنهم يشعرو بنقص ما، وكلما حاولوا أن يزدادوا غنى ورفاهية تورَّطوا في العبث والقنوط والاضطراب والعمى والفراغ الروحي.
وإذا عدنا الى فلسفة الدعاء، فإن هناك حاجات أبعد من الحاجات المادية، وأرفع مما هو في الواقع، إنه السعي الى الأعلى والاشمل.
هذه الروح تعيش غريبة في هذا العالم الماديّ، وحيدة بدون محبة حقيقية، هي منفصلة عن عالمها، مع أنها جزء منه ولكنه جزء ميِّت خامد كأجزاء الطبيعة، إنه يعاني ويحاول بغية أن يوصل نفسه بالروح الكبيرة، بالروح الشاملة، وهو يمل ويفرّ من الحالة التي هو فيها ولكن لا يعلم إلى اين.
هذا الفرار من ماهو موجود، والشوق الى المجهول والبعيد، إنها الروح التوّاقة الى العلو والرقي.
والدعاء هو الارادة والمشاعر التي تجمعت فيها هذه الطاقة لتبلغ العلوّ والكمال.
يقول كارل: إن الدعاء هو تحليق الروح الإنسانية في عوالم عظيمة حيث محجة الروح.
الدعاء هو تجليّ الروح، وعدم حصرها في هذا الواقع المادي المتقوقع في وجود محدود، وهو المعراج والصعود نحو القمم العالية فوق عالم المادة.
أما الأدعية الإسلامية، فهي ليست أدعية فحسب، بل هي نصوص للدراسة والفلسفة والعقيدة، هي خطاب لله ومعرفة العالم والعلوي، ومعرفة الله والانسان، وقد صيغت صياغة عميقة وجميلة.
<u>الدعاء الإسلامي يتألف من أشياء ثلاثة:</u>
<u>الاول:</u>
هو مخاطبة الله وذكر صفاته التي تربط الانسان بربِّه.
<u>والثاني:</u>
هو درس في أصول الاخلاق. مثلاً: "اللهم انعم على الناس ما تنعمه عليَّ وعلى أهل بيتي وعلى مجتمعي بالخير والسعادة والعدل.

واللهم اعصمنا من الظلم ونجِّنا من الذل.
الدعاء هو من أجمل النصوص الأدبية، فيه من الفن والجمال والموسيقى مما يساعد على التكامل الروحي والانساني، وتؤلف الكلمات والجمل، وكأنها جوقة موسيقية، تنسجم وتتآلف فيها العبارات والجمل والمعاني بروعة وعمق، مما يؤدي الى تأثير الدعاء في الانسان.
اما الثالث: فهو الفكر الذي يحويه الدعاء الإسلامي، فالدعاء ينطوي من أوله الى آخره، كأدعية الصحيفة السجادية على الحديث عن الله وعن الانسان وعن المجتمع والأفراد وعن الاخلاق الفاضلة التي يجب ان تربط الجميع، ويحتوي على بيان العقائد الحقَّة.
ونلاحظ في الدعاء الإسلامي، ولا سيما الشيعي، جانباً آخر سياسياً واجتماعياً، لأن الشيعة عانوا الويلات وخاصة في زمن زين العابدين، فلم يكن ثمة مجال للنضال والجهاد، فقد قُمعت ثورة الإمام الحسين ضد البغي والطغيان، فقتل مع أنصاره جميعاً وأهل بيته، لم يبق إلا زين العابدين.
ولم يكن في المستطاع القيام بثورة للإطاحة بالحكومة، ولا حتى القيام بأي نشاط في السياسة.
وكانت الاحوال تشير الى القضاء على الإسلام، فأجهزة الدولة خاضعة للخليفة ومن حوله.
وكان الإمام السجّاد وحيداً إزاء هذا البغي والإجرام والقتل والرعب، فلم يبق إلا الدعاء ملاذاً وحربةً يطعن بها الاعداء.
في كربلا قُتل الرجال، وسُبيت النساء، ولم يسلم إلا الإمام السجّاد، الذي كان عليه واجبان، الأول هو المحافظة على نفسه، والثاني هو إشاعة الفكر الصحيح بين الناس، فكان الدعاء.
ولم يكن باستطاعة السجَّاد ان يمارس التدريس كما فعل الامام الصادق، ولم يكن باستطاعته أن يفعل كما فعل الإمام علي والحسن والحسين.

كان يتوسَّل بالدعاء ليعلّم الناس الأخلاق والعقيدة ومكافحة الظلم، والدفاع عن الحق والحقيقة.
وكان عليه مهمة تأدية الرسالة، وقد يقال أن هذه الوسيلة هي أضعف الوسائل، نعم إنها كذلك، ولكن لا تجعل الإنسان في حلٍّ منها.
كان أئمة الشيعة جميعاً ضحية بطش التاريخ، ولكن الإمام الرابع زين العابدين، كان له وضع خاص، لقد شاهد بعينيه تلك المجازر الرهيبة التي عرفتها كربلاء، وشاهد استشهاد الأهل والمجاهدين، وقد حُرم الشهادة، ولم يكن له نصيب من الجهاد بسبب مرضَه ولكن جراحاته كانت أشد عليه من جراح السيف.
كان الموت نعمةً وخلاص، فكان وحيداً مع الأرامل واليتامى، وقد رافق قافلة الأسرى التي كانت تقودها زينب الى عاصمة الغدر والإجرام.
وكانت يدي زين العابدين مكبلتان، وعيون الجلادين والمنافقين الشامتة، تراه وهو يُساق الى بلاط جلاّد حقير وحيداً فريداً يقاسي ما ضاع من ثورة الإسلام، وهو ينظر الى معاناة أهله وعذاباتهم.
ثم بعد ان عاد المدينة، شهد ما قام به يُسر بن ارطأه الذي ارسله يزيد ليخمد الثورة، وقد استباح المدينة وبناتها وزوجات الصحابة وبناتهم، ثلاثة أيام ثم باع النساء وكأنهن الجواري في سوق الرقيق.
لقد استعمل مجرمو بني أمية رسالة الاسلام في خدمة الجاهلية السفَّاحة، وقد رأى رجال الإسلام قد لاذوا بالصمت، وهم يرون كل هذه الجرائم، بل تطوع بعضهم لخدمة الحكومة بلا صدق ولاشرف.
ولقد رأى كيف خلت ساحة الدفاع عن الحق من أهل العدل والإسلام الحق.
ثم يشعر وهو وارث رسالة النبي والبقية الباقية من عترته، والآمال معقودة عليه في مقاومة القوى الباغية والدفاع عن الحقوق المهضومة، وماذا يستطيع ان يفعل مع مجتمع لا يعرف إلاّ منافعه الخسيسة، وقد أبيدت في كربلاء، آخر قاعدة من قواعد الكفاح، وآخر كتيبة من كتائب

الإسلام، والحلاقيم المحتجَّة محزوزة بالسكين وما بقي من الأنفاس الطاهرة حبيسة الصدور، لا يستطيعوا ان ينبسوا ببنت شفة.
كان السلطان من دمشق الى خراسان للسيف والإفك، وكان الإمام السجَّاد في هذه الأمبراطورية التي تكونت على البطش والإرهاب وحيداً فريداًجريحاً طافحاً بالألم غريباً في دياره، عارفاً ومبصراً كل شيء.
كانت المنابر تخادع والرواة يزوِّرون، وقد اتخذوا القرآن راية للشرك، والمساجد ضرار يشيعون فيه الذل والتخدير ويسِّبون عليّ على المنابر، ويمدحون الخليفة يزيد.
وكم كانت مسؤولية هذا الإمام عظيمة في هذه الظروف الصعبة، وكيف كان عليه أن يكون القدوة بالعمل، وهو لا يؤذن له أن يموت شهيداً كما استشهد الحسين، فالشهادة لها حالاتها لتمكن الشهيد من الثورة على الجلاّدين، وإلا فإن موته لا نفع فيه، بل هو ينفع العدو. ولا هو يستطيع أن يحتج أو يتكلم في هذه الامبراطورية فالعدو بالمرصاد لتلك الكلمات.
ومع ذلك فإن الإمام السجَّاد، كان وجوده وصمته قدوة فكان التعليم بالشفاه المطبقة، والكلام في الصمت وكانت الصحيفة السجادية، هي الاسلوب لمن لا يستطيع ان يحتج ولو بالكلمة.
وهي موجَّهة الى القليل من المجاهدين الصادقين، ممن يحملون مسؤولية الدفاع عن الحقيقة، والكفاح ضد المعتدين الغاصبين على حريَّة الانسان وكرامته.
كان الدعاء مدرسة الإمام السجَّاد.
صحيح أن أئمة الشيعة هم نور واحد وقد شربوا من منبع واحد، وسلكوا محجَّة واحدة.
إلا انهم ليسو تكراراً لبعضهم في الدور الاجتماعي.
قال الإمام عليّ يصف ولديه: " لقد وهبت حلمي للحسن وشجاعتي للحسين".

وكذلك كان شأن الانبياء، فالزمان الذي عاشوا فيه، متباين ومختلف، لذلك أبلغوا رسالتهم في أساليب مختلفة.
روي عن زين العابدين أنه كان يخرج في مواسم الحج مع الحجاج ليخدمهم دون ان يُعرِّف عن نفسه، وفي احد المواسم تعامل معه أحد الحجاج بخشونة وكأنه هو السيد والإمام وهو العبد، فما صدر من الإمام إلا مايصدر عن العبد وعندما اجتمعت الناس فإذا بهم يعرفوه فيعتذروا إليه خجلين مستغفرين مقدِّسين، وإذا بالإمام ينسحب ويذهب الى قافلة اخرى ليخدم وليريح من المجاملات والتبجيلات ويؤدي ما عليه من روح الحج.
إن الايمان القوي، يهبنا دائماً مفتاحاً لباب مغلق فإذا عجز ذكاؤنا وأساليبنا، فإن المحبة واليقين والإخلاص يفتح لنا باباً، عندما تأمر المحبة يقول المحال سمعاً وطاعة.
الدعاء هو التجربة للصعود الى ما وراء المنظور، الى المطلق والخلود، والدعاء هو اللسان الناطق عن الحق والذود عنه من الظلم والاستبداد، ولا قبل للحكومات الظالمة والطاغية ان تنتصر على هذا الدعاء العميق والمتكرر الحارّ.
كان زين العابدين يناجي ربّه، يملؤه الألم بأدعية تتدفق من فطرته دون تكلّف، فهو لم يفعل الخير، بل هو الخير كله، هو المحبة والتفاني من أجل الناس.
ولئن كان الدعاء يلطِّف الروح ويُحملها ويمحق الاثرة والأنانية، فحريٌّ بالدعاء أن يُقدَّس، لأن الأرواح المتوحشة المتحجرة تحتاج الى قدر من اللطف والأنس والمحبة والى الدموع، ولأن الخضوع لله لا يقلل من قيمتها بل يزيدها قوة وقيمة.

والحمد لله رب العالمين

إلهي: صن عقيدتي من عُقُدي
إلهي: مكّني من احتمال العقيدة المخالفة.
إلهي: الهمني ان لا أحكم على أحد. قبل ان أعرف الصحيح والخطأ.
إلهي: أقتل الإثرة في نفسي أو انتزعها.

إلهي: هبني الطاعة المطلقة وجهاد نفسي.
إلهي: إلهي لا تتركني أحتاج الى الترجمة والتقليد، لا من الشرق ولا من الغرب. فأنا وحدي اريد ان أتكلم.
إلهي: حطم عقلي اللئيم الذي لا يعرف إلا المنفعة. واجعل لي جناحان اطير بهما الى الأعلى.
إلهي: اجعلني احتمي بالارواح الكبيرة، وابتعد عن الارواح الحقيرة.
إلهي: زدني إرادةً وعلماً وغنىً ولطافة روح.
إلهي: ألهمني كما ألهمت "روسو" ان أفدي نفسي من اجل الحريّة والعقيدة.
إلهي: ضع في قلوب المفكرين عباره قالها "دستيوفسكي" وهي: إن لم يكن الله فكل شيء مجاز والعالم يصبح بلا معنى.
إلهي: قوّني بالفقر والزهد، إذا كان المال يفسد المرؤه.